(**وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ (١٠١)**)

[التوبة : ١٠١] .

(**وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ**) يخبر الله تعالى رسوله ﷺ أن في أحياء العرب ممن حول المدينة منافقون .

(**وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ**) أيضاً منافقون .

(**مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ**) أي : تمرنوا عليه ، واستمروا وازدادوا فيه طغياناً .

(**لَا تَعْلَمُهُمْ**) بأعيانهم فتعاقبهم ، أو تعاملهم بمقتضى نفاقهم ، لما لله في ذلك من الحكمة الباهـرة .

(**نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ**) لأني عالم السر والعلانية ونعلم نفاقهم ونعرفك حالهم.

(**سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ**) قيل : في الدنيا بالقتل والسبي ، وبعد ذلك بعذاب القبر.

- **قال ابن عطية** : ولا خلاف بين المتأولين أن " العذاب العظيم " الذي يردون إليه هو عذاب الآخرة ، وأكثر الناس أن العذاب المتوسط هو عذاب القبر .

واختلف في عذاب المرة الأولى :

فقال مجاهد وغيره : هو عذابهم بالقتل والجوع ، وهذا بعيد لأن منهم من لم يصبه هذا .

وقال ابن عباس أيضاً : عذابهم هو بإقامة حدود الشرع عليهم مع كراهيتهم فيه .

وقال ابن إسحاق : عذابهم هو همهم بظهور الإسلام وعلو كلمته .

وقال ابن عباس وهو الأشهر عنه : عذابهم هو فضيحتهم ووصمهم بالنفاق .

(**ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ**) أي : ثم يعودون ويرجعون إلى خالقهم – سبحانه – يوم القيامة فيعذبهم عذابا عظيما بسبب إصرارهم على النفاق ، ورسوخهم في المكر والخداع.

الفوائد :

١– أن النفاق موجود في كل مكان .

٢– فضح الله للمنافقين .

٣– أن المنافقين ليسوا على درجة واحدة .

٤– أنه لا يعلم ما في القلوب إلا الله .

٥– أن الإنسان في الدنيا يحكم بالظاهر دون الباطن .

٦– تهديد شديد للمنافقين بالعذاب بالدنيا والقبر والآخرة .

(**وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٠٢)**) .

[التوبة : ١٠٢] .

لما بَيَّن تعالى حال المنافقين المتخلفين عن الغَزاة رغبة عنها وتكذيبًا وشكاً ، شرع في بيان حال المذنبين الذين تأخروا عن الجهاد كسلاً وميلاً إلى الراحة، مع إيمانهم وتصديقهم بالحق فقال :

(**وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ**) أي: أقروا بها، وندموا عليها، وسعوا في التوبة منها، والتطهر من أدرانها.

وفي المراد بهم قولان :

أحدهما : أنهم قوم من المنافقين تابوا من نفاقهم وأخلصوا .

وحجة هذا القول أن قوله تعالى (وآخرون ...) عطف على قوله (وممن حولكم من الأعراب منافقون ...) .

والقول الثاني : وهو قول جمهور المفسرين إنها نزلت في جماعة من المسلمين من أهل المدينة تخلفوا عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك ثم ندموا على ذلك

- **قال الآلوسي** : قوله (وآخرون اعترفوا بذنوبهم ...) بيان لحال طائفة من المسلمين ضعيفة الهمم في أمر الدين ، ولم يكونوا منافقين على الصحيح ، وقيل هم طائفة المنافقين إلا أنهم وفقوا للتوبة فتاب الله عليهم .

والمعنى : ويوجد معكم أيها المؤمنون قوم آخرون من صفاتهم أنهم اعترفوا بذنوبهم ، أي : أقروا بها ولم ينكروها.

- **قال الخازن** : قال أهل المعاني : الاعتراف عبارة عن الإقرار بالشيء ومعناه أنهم أقروا بذنبهم وفيه دقيقة وهي أنهم لم يعتذروا عن تخلفهم بأعذار باطلة كغيرهم من المنافقين ولكن اعترفوا على أنفسهم بذنوبهم وندموا على ما فعلوا.

(**خَلَطُوا عَمَلًا صالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً**) أي : خلطوا عملهم الصالح وهو جهادهم في سبيل الله قبل غزوة تبوك ، بعمل سيئ وهو تخلفهم عن الخروج إلى هذه الغزوة.

- **قال الرازي** : في هذا العمل الصالح وجوه :

الأول : العمل الصالح هو الاعتراف بالذنب والندامة عليه والتوبة منه ، والسيء هو التخلف عن الغزو.

والثاني : العمل الصالح خروجهم مع الرسول ﷺ إلى سائر الغزوات ، والسيء هو تخلفهم عن غزوة تبوك.

- **قال السعدي** : ولا يكون العمل صالحاً إلا إذا كان مع العبد أصل التوحيد والإيمان، المخرج عن الكفر والشرك، الذي هو شرط لكل عمل صالح، فهؤلاء خلطوا الأعمال الصالحة، بالأعمال السيئة، من التجرؤ على بعض المحرمات، والتقصير في بعض الواجبات، مع الاعتراف بذلك والرجاء، بأن يغفر الله لهم .

(**عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ**) أي : عسى الله تعالى : أن يقبل توبتهم ، ويغسل ، حوبتهم ، ويتجاوز عن خطاياهم.

وعبر سبحانه بعسى للإشعار بأن ما يفعله تعالى ليس إلا على سبيل التفضل منه ، حتى لا يتكل الشخص ، بل يكون على خوف وحذر.

وقد قالوا إن كلمة عسى متى صدرت عن الله تعالى فهي متحققة الوقوع ، لأنها صادرة من كريم ، والله تعالى أكرم من أن يطمع أحداً في شيء لا يعطيه إياه.

- **قال السعدي** : وتوبته على عبده نوعان:

الأول: التوفيق للتوبة.

والثاني: قبولها بعد وقوعها منهم.

(**إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيم**) تعليل لرجاء قبول توبتهم ، إذ معناه ، إن الله تعالى كثير المغفرة للتائبين ، واسع الرحمة للمحسنين.

- **قال القرطبي** : والجمهور أن الآية نزلت في شأن المتخلّفين عن غزوة تبوك ، وكانوا ربطوا أنفسهم كما فعل أبو لُبابة ، وعاهدوا الله ألا يطلقوا أنفسهم حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذي يطلقهم ويرضى عنهم ، فقال النبي ﷺ : وأنا أقسم بالله لا أطلقهم ولا أعذرهم حتى أومر بإطلاقهم رَغبوا عنّي وتخلّفوا عن الغزو مع المسلمين ، فأنزل الله هذه الآية ؛ فلما نزلت أرسل إليهم النبيّ ﷺ فأطلقهم وعذرهم.

قال ابن كثير : وهذه الآية –وإن كانت نزلت في أناس معينين –إلا أنها عامة في كل المذنبين الخاطئين المخلصين المتلوثين.

الفوائد :

١- أنه لا يسلم أحد من الذنب .

٢- أن وقوع الإنسان في الذنب ثم توبته لا يعتبر نقصاً .

٣- أن الله يتوب على التائبين ويفرح بذلك .

٤- إثبات اسمين من أسماء الله وهما : التواب الرحيم .

(خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٠٣)) .

[التوبة : ١٠٣] .

(**خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً**) أمر الله تعالى رسوله ﷺ بأن يأخُذَ من أموالهم صدقَة يطهرهم ويزكيهم بها، وهذا عام وإن أعاد بعضهم الضمير في "أموالهم" إلى الذين اعترفوا بذنوبهم وخلطوا عملاً صالحًا وآخر سيئاً .

- **قال ابن الجوزي** : قوله تعالى (خذ من أموالهم صدقة) .

قال المفسرون : " لما تاب الله عز وجل على أبي لبابة وأصحابه قالوا : يا رسول الله ، هذه أموالنا فتصدق بها عنا ، فقال : "ما أُمرت أن آخذ من أموالكم شيئاً" " فنزلت هذه الآية.

وفي هذه الصدقة قولان.

أحدهما : أنها الصدقة التي بذلوها تطوعاً ، قاله ابن زيد ، والجمهور.

والثاني : الزكاة ، قاله عكرمة.

- **وقال الخازن** : ... وقال بعضهم إن الآية كلام مبتدأ والمقصود منها إيجاب أخذها من الأغنياء ودفعها إلى الفقراء وهذا قول أكثر الفقهاء واستدلوا بها على إيجاب أخذ الزكاة.

(**تُطَهِّرُهُمْ**) من الذنوب والأخلاق .

(**وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا**) أي: تنميهم، وتزيد في أخلاقهم الحسنة، وأعمالهم الصالحة ، وتزيد في ثوابهم الدنيوي والأخروي ، وتنمي أموالهم.

- فضائل الصدقة :

الصدقة فضلها عظيم ، وأجرها كبير ، وجاءت النصوص الكثيرة في فضلها :

أولاً : أنها برهان على صدق إيمان صاحبها .

لحديث أبي مالك الأشعري . قال : قال ﷺ (والصدقة برهان) رواه مسلم .

قال ابن رجب : وأما الصدقة فهي برهان ، ... فكذلك الصدقة برهان على صحة الإيمان.

ثانياً : أنها تطهير للنفس.

كما قال تعالى (خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ) .

ثالثاً : أنها تزيد المال .

قال ﷺ (ما نقصت صدقة من مال) رواه مسلم .

رابعاً : أنها تظلل صاحبها يوم القيامة .

كما في حديث (العبد في ظل صدقته يوم القيامة) رواه ابن حبان .

خامساً : مغفرة الذنوب:

وفي الحديث (والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار) رواه الترمذي.

سادساً : يكون في ظل الله يوم لا ظل إلا ظله .

كما في حديث (وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ) .

سابعاً : سبب للنجاة من النار .

كما قال ﷺ للنساء (تصدقن ، فإني رأيتكن أكثر أهل النار) متفق عليه .

وقال ﷺ (اتقوا النار ولو بشق تمرة) متفق عليه .

ثامناً : أن الله يضاعفها ولو كانت قليلة .

كما قال تعالى (يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ) .

وقال ﷺ (إن الله يربي الصدقة كما يربي أحدكم فلوه) متفق عليه .

عن أبي هُرَيْرَةَ قال . قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (مَا تَصَدَّقَ أَحَدٌ بِصَدَقَةٍ مِنْ طَيِّبٍ – وَلاَ يَقْبَلُ اللَّهُ إِلاَّ الطَّيِّبَ – إِلاَّ أَخَذَهَا الرَّحْمَنُ بِيَمِينِهِ وَإِنْ كَانَتْ تَمْرَةً فَتَرْبُو فِي كَفِّ الرَّحْمَنِ حَتَّى تَكُونَ أَعْظَمَ مِنَ الْجَبَلِ كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فَلُوَّهُ أَوْ فَصِيلَهُ) متفق عليه .

تاسعاً : درجة البر (الجنة) تنال بالإنفاق:

كما قال تعالى (لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ) .

وكان ابن عمر إذا أعجبه شيء من ماله تصدق به .

عاشراً : صاحب الصدقة موعود بالخلف .

كما قال تعالى (وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ) أي يخلفه عليكم في الدنيا بالبذل ، وفي الآخرة بالجزاء والثواب .

الحادي عشر : سبب لدعاء الملائكة .

قال ﷺ (ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان فيقول أحدهما : اللهم أعط منفقاً خلفاً ، ويقول الآخر : اللهم أعط ممسكاً تلفاً) متفق عليه .

الثاني عشر : أن فيها انشراح الصدر، وراحة القلب وطمأنينته .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ ضَرَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (مَثَلَ الْبَخِيلِ وَالْمُتَصَدِّقِ كَمَثَلِ رَجُلَيْنِ عَلَيْهِمَا جُنَّتَانِ مِنْ حَدِيدٍ قَدِ اضْطُرَّتْ أَيْدِيهِمَا إِلَى ثُدَيِّهِمَا وَتَرَاقِيهِمَا فَجَعَلَ الْمُتَصَدِّقُ كُلَّمَا تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ انْبَسَطَتْ عَنْهُ حَتَّى تُغَشِّيَ أَنَامِلَهُ وَتَعْفُوَ أَثَرَهُ وَجَعَلَ الْبَخِيلُ كُلَّمَا هَمَّ بِصَدَقَةٍ قَلَصَتْ وَأَخَذَتْ كُلُّ حَلْقَةٍ مَكَانَهَا » . قَالَ فَأَنَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ بِإِصْبَعِهِ فِي جَيْبِهِ فَلَوْ رَأَيْتَهُ يُوَسِّعُهَا وَلاَ تَوَسَّع) متفق عليه .

الثالث عشر : الفضل الكبير .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَال (بَيْنَا رَجُلٌ بِفَلاَةٍ مِنَ الأَرْضِ فَسَمِعَ صَوْتاً فِي سَحَابَةٍ اسْقِ حَدِيقَةَ فُلاَنٍ . فَتَنَحَّى ذَلِكَ السَّحَابُ فَأَفْرَغَ مَاءَهُ فِي حَرَّةٍ فَإِذَا شَرْجَةٌ مِنْ تِلْكَ الشِّرَاجِ قَدِ اسْتَوْعَبَتْ ذَلِكَ الْمَاءَ كُلَّهُ فَتَتَبَّعَ الْمَاءَ فَإِذَا رَجُلٌ قَائِمٌ فِي حَدِيقَتِهِ يُحَوِّلُ الْمَاءَ بِمِسْحَاتِهِ فَقَالَ لَهُ يَا عَبْدَ اللَّهِ مَا اسْمُكَ قَالَ فُلاَنٌ . لِلاِسْمِ الَّذِي سَمِعَ فِي السَّحَابَةِ فَقَالَ لَهُ يَا عَبْدَ اللَّهِ لِمَ تَسْأَلُنِي عَنِ اسْمِي فَقَالَ إِنِّي سَمِعْتُ صَوْتاً فِي السَّحَابِ الَّذِي هَذَا مَاؤُهُ يَقُولُ اسْقِ حَدِيقَةَ فُلاَنٍ لِاسْمِكَ فَمَا تَصْنَعُ فِيهَا قَالَ أَمَّا إِذَا قُلْتَ هَذَا فَإِنِّي أَنْظُرُ إِلَى مَا يَخْرُجُ مِنْهَا فَأَتَصَدَّقُ بِثُلُثِهِ وَآكُلُ أَنَا وَعِيَالِي ثُلُثاً وَأَرُدُّ فِيهَا ثُلُثَه) رواه مسلم .

(**وَصَلِّ عَلَيْهِمْ**) أي: ادع لهم واستغفر لهم ، أي: للمؤمنين عموماً وخصوصاً عندما يدفعون إليك زكاة أموالهم.

كما رواه مسلم في صحيحه، عن عبد الله بن أبي أوفى قال (كان رسول الله ﷺ إذا أُتِيَ بصدقة قوم صَلَّى عليهم، فأتاه أبي بصدقته فقال: "اللهم صَل على آل أبي أوفى) .

وفي الحديث الآخر: أن امرأة قالت: يا رسول الله، صلّ عليَّ وعلى زوجي. فقال: "صلى الله عليك، وعلى زوجك .

(**إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ**) أي: طمأنينة لقلوبهم، واستبشار لهم .

(**وَاللَّهُ سَمِيعٌ**) لدعائك، سمع إجابة وقبول.

(**عَلِيمٌ**) أحوال العباد ونياتهم، فيجازي كل عامل بعمله، وعلى قدر نيته، فكان النبي ﷺ يمتثل لأمر الله، ويأمرهم بالصدقة، ويبعث عماله لجبايتها، فإذا أتاه أحد بصدقته دعا له وبرَّك.

الفوائد :

١- في الآية :أن العبد لا يمكنه أن يتطهر ويتزكى حتى يخرج زكاة ماله، وأنه لا يكفرها شيء سوى أدائها، لأن الزكاة والتطهير متوقف على إخراجها.

٢-وفيها: استحباب الدعاء من الإمام أو نائبه لمن أدى زكاته بالبركة، وأن ذلك ينبغي، أن يكون جهراً ، بحيث يسمعه المتصدق فيسكن إليه.

٣- ويؤخذ من المعنى، أنه ينبغي إدخال السرور على المؤمن بالكلام اللين، والدعاء له، ونحو ذلك مما يكون فيه طمأنينة، وسكون لقلبه. وأنه ينبغي تنشيط من أنفق نفقة وعمل عملا صالحا بالدعاء له والثناء، ونحو ذلك. (تفسير السعدي) .

٤- فضل الصدقة .

٥- إثبات اسمين من أسماء الله وهما : السميع ، والعليم .

(**أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٠٤)**) .

[التوبة : ١٠٤] .

(**أَلَمْ يَعْلَمُوا**) أي: أما علموا سعة رحمة الله وعموم كرمه .

(**أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ**) التائبين من أي ذنب كان، بل يفرح تعالى بتوبة عبده، إذا تاب أعظم فرح يقدر.

(**وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ**) منهم أي: يقبلها، ويأخذها بيمينه، فيربيها لأحدهم كما يربي الرجل فلوه، حتى تكون التمرة الواحدة كالجبل العظيم، فكيف بما هو أكبر وأكثر من ذلك.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ « لاَ يَتَصَدَّقُ أَحَدٌ بِتَمْرَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ إِلاَّ أَخَذَهَا اللَّهُ بِيَمِينِهِ فَيُرَبِّيهَا كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فَلُوَّهُ أَوْ قَلُوصَهُ حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ الْجَبَلِ أَوْ أَعْظَم) متفق عليه .

(**وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ**) أي: كثير التوبة على التائبين، فمن تاب إليه تاب عليه، ولو تكررت منه المعصية مراراً .

(**الرَّحِيمُ**) الذي وسعت رحمته كل شيء، وكتبها للذين يتقون، ويؤتون الزكاة، ويؤمنون بآياته، ويتبعون رسوله.

- **فضل التوبة :**

أولاً : أنها سبب لمحبة الله .

قال تعالى (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ) .

ثانياً : أنها طاعة ومرادة لله تعالى .

قال تعالى (وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ) .

ثالثاً : أن التوبة سبب الفلاح، والفوز بسعادة الدارين:

قال تعالى (وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: فالقلب لا يصلح، ولا يفلح، ولا يتلذذ، ولا يسر، ولا يطيب، ولا يسكن، ولا يطمئن إلا بعبادة ربه وحبه، والإنابة إليه .

رابعاً : بالتوبة تكفر السيئات: فإذا تاب العبد توبة نصوحاً كفَّر الله بها جميع ذنوبه وخطاياه.

قال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحاً عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ) .

خامساً : بالتوبة تبدل السيئات حسنات: فإذا حسُنت التوبة بدَّل الله سيئات صاحبها حسنات .

قال تعالى (إِلاَّ مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً) .

وهذا من أعظم البشارة للتائبين إذا اقترن بتوبتهم إيمان وعمل صالح .

قال ابن عباس . رضي الله عنهما ما رأيت النبي ﷺ فَرِحَ بشيء فَرَحَهُ بهذه الآية لما أنزلت، وفرحه بنزول (إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً. لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ) .

سادساً : التوبة سبب للمتاع الحسن، ونزول الأمطار، وزيادة القوة، والإمداد بالأموال والبنين .

قال تعالى (وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعاً حَسَناً إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ) .

وقال تعالى على لسان هود عليه السلام (وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلْ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِين) .

وقال على لسان نوح عليه السلام (فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً . يُرْسِلْ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَاراً) .

سابعاً : سبب لفرح الله تعالى .

كما في حديث (للهُ أفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ أَحَدِكُمْ سَقَطَ عَلَى بَعِيرِهِ وقد أضلَّهُ في أرضٍ فَلاةٍ) مُتَّفَقٌ عليه .

الفوائد :

١- سعة رحمة الله بتوبته على التائبين .

٢- أن من تاب وندم واستغفر تاب الله عليه مهما عظم ذنبه .

٣-فضل الصدقة .

(وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٠٥)) .

[التوبة : ١٠٥] .

(**وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ** ...) قال مجاهد: هذا وَعيد، يعني من الله تعالى للمخالفين أوامره بأن أعمالهم ستعرَضُ عليه تبارك وتعالى، وعلى الرسول، وعلى المؤمنين.

وهذا كائن لا محالة يوم القيامة، كما قال (يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ) .

وقال تعالى (يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ) .

وقال تعالى (وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ) .

وقد يظهر ذلك للناس في الدنيا .

عن أبي سعيد، عن رسول الله ﷺ أنه قال (لو أن أحدكم يعمل في صخرة صَماء ليس لها باب ولا كُوَّة ، لأخرج الله عمله للناس كائنًا ما كان) .

وقد ورد: أن أعمال الأحياء تُعرَض على الأموات من الأقرباء والعشائر في البرزخ .

- **قال السعدي** : يقول تعالى (وَقُلْ) لهؤلاء المنافقين (اعْمَلُوا) ما ترون من الأعمال، واستمروا على باطلكم، فلا تحسبوا أن ذلك، سيخفى . (فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ) أي: لا بد أن يتبين عملكم ويتضح، (وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) من خير وشر، ففي هذا التهديد والوعيد الشديد على من استمر على باطله وطغيانه وغيه وعصيانه.

الفوائد :

١- تهديد لكل منافق ومخالف لأوامر الله .

٢- وجوب الخوف من عذاب الله .

٣-إثبات البعث والحساب .

٤- أن يوم القيامة يظهر كل على حقيقته .

٥- أن الله لا يخفى عليه شيء .

(وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٠٦)) .

[التوبة : ١٠٦] .

(**وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ**) أي : وآخرون من المتخلفين ، مؤخرون الى ان يظهر امر الله فيهم ، قال ابن عباس : هم "كعب بن مالك ، ومرارة بن الربيع ، وهلال بن امية ، لم يسارعوا الى التوبة والاعتذار ، وكانوا من اصحاب بدر ، فنهى النبي (ص) عن كلامهم والسلام عليهم ، فصاروا مرجئين لأمره تعالى الى ان يتجاوز عن سيئاتهم ، فهو تعالى وحده الذي يقبل التوبة ، ويتوب على العبد دون غيره .

- **قال ابن كثير** : قال ابن عباس ومجاهدُ وعِكْرِمة، والضحاك وغير واحد: هم الثلاثة الذين خلفوا، أي: عن التوبة، وهم: مرارة بن الربيع، وكعب بن مالك، وهلال بن أمية، قعدوا عن غزوة تبوك في جملة من قعد، كسلا وميلا إلى الدَّعَة والحفظ وطيب الثمار والظلال، لا شكا ونفاقا، فكانت منهم طائفة رَبَطوا أنفسهم بالسواري، كما فعل أبو لُبابة وأصحابه، وطائفة لم يفعلوا ذلك وهم هؤلاء الثلاثة المذكورون، فنزلت توبة أولئك قبل هؤلاء، وأرجى هؤلاء عن التوبة حتى نزلت الآية الآتية، وهي قوله (لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ) (وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ [وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ) .كما سيأتي بيانه في حديث كعب بن مالك.

(**إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ**) أي: هم تحت عفو الله، إن شاء فعل بهم هذا، وإن شاء فعل بهم ذاك، ولكن رحمته تغلب غضبه .

(**وَاللَّهُ عَلِيمٌ**) بأحوال العباد ونياتهم ، عليم بمن يستحق العقوبة ممن يستحق العفو .

(**حَكِيمٌ**) في أفعاله وأقواله يضع الأشياء مواضعها، وينزلها منازلها، فإن اقتضت حكمته أن يغفر لهم ويتوب عليهم غفر لهم وتاب عليهم، وإن اقتضت حكمته أن يخذلهم ولا يوفقهم للتوبة، فعل ذلك.

الفوائد :

١- أن ممن تخلف عن غزوة تبوك بعض الصحابة كسلاً لا نفاقاً .

٢- أن الإنسان – مهما عظم قدره - قد يكسل وقد يقع في بعض المخالفات .

٣- رحمة الله بعباده ولطفه بهم .

٤- سعة رحمة الله بتوبته على هؤلاء الثلاثة .

٥- أن رحمة الله تغلب غضبه .

٦- إثبات علم الله الكامل .

٧- إثبات الحكمة الكاملة لله تعالى .

(وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٠٧) لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ (١٠٨) أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠٩) لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١١٠)

[التوبة : ١٠٧ – ١٠٨] .

(**وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا**) أي : ومن المنافقين جماعة بالغوا في الإجرام ، حتى ابتنوا مجمعاً يدبرون فيه الشر ، وسموه " مسجدا " مضارة للمؤمنين ، وقد اشتهر باسم " مسجد الضرار .

- **قال الواحدي** : قال ابن عباس ومجاهد وقتادة وعامة أهل التفسير ﷺ : الذين اتخذوا مسجداً ضراراً كانوا اثني عشر رجلاً من المنافقين بنوا مسجداً يضارون به مسجد قباء

(**وَكُفْرًا**) أي : نصرة للكفر الذي يخفونه .

(**وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ**) أي : يفرقون بواسطته جماعة المؤمنين ، ويصرفونهم عن مسجد قباء .

(**وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ**) أي : ترقباً وانتظاراً لقدوم (أبي عامر الفاسق) الذي قال لرسول الله : لا أجد قوماً يقاتلونك إلا قاتلتك معهم ، وهو الذي أمرهم ببناء المسجد ، ليكون معقلاً له ، قال الطبري في رواية الضحاك : هم ناس من المنافقين بنوا مسجدا بقباء ، يضارون به نبي الله والمسلمين ، وكانوا يقولون : إذا رجع أبو عامر صلى فيه ، واذا قدم ظهر على " محمد " وتغلب عليه .

- قوله تعالى (وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ) علة رابعة لاتخاذ هذا المسجد.

أي : واتخذوه ليكون مكاناً يرقبون فيه قدوم « من حارب الله ورسوله » وهو أبو عامر الراهب ، الذي أعلن عداوته لدعوة الإسلام « من قبل » بناء مسجد الضرار.

فإن أبا عامر هذا ، كتب إلى جماعة من قومه. وهو عند هرقل. يعدهم ويمنيهم ، ويطلب منهم أن يتخذوا له معقلاً يقدم عليهم فيه فشرعوا في بناء هذا المسجد .

- **قال الشوكاني** : فقد أخبر الله سبحانه أن الباعث لهم على بناء هذا المسجد أمور أربعة :

الأوّل : الضرار لغيرهم ، وهو المضارة .

الثاني : الكفر بالله والمباهاة لأهل الإسلام ، لأنهم أرادوا ببنائه تقوية أهل النفاق .

الثالث : التفريق بين المؤمنين؛ لأنهم أرادوا أن لا يحضروا مسجد قباء ، فتقلّ جماعة المسلمين ، وفي ذلك من اختلاف الكلمة وبطلان الألفة ما لا يخفى .

الرابع : الإرصاد لمن حارب الله ورسوله ، أي الإعداد لأجل من حارب الله ورسوله

(**وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى**) أي : وليقسمن ما أردنا ببنائه إلا الخير والإحسان ، من الرفق بالمسكين ، والتوسعة على المصلين .

(**وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ**) أي: فيما قصدوا وفيما نوَوا، وإنما بنوه ضِراراً لمسجد قُباء، وكفراً بالله، وتفريقًا بين المؤمنين، وإرصادًا لمن حارب الله ورسوله، وهو أبو عامر الفاسق، الذي يقال له: "الراهب" لعنه الله .

(**لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا**) أي : لا تصل فيه يا محمد أبداً ، لأنه لم يبن إلا ليكون معقلاً لأهل النفاق .

- **قال القرطبي** : قوله تعالى لا تَقُمْ فِيهِ أَبَداً يعنى مسجد الضرار. لا تقم فيه للصلاة ، وقد يعبر عن الصلاة بالقيام. يقال : فلان يقوم الليل أي : يصلى ، ومنه الحديث الصحيح : « من قام رمضان إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه ».

وقد روى أن رسول الله ﷺ لما نزلت هذه الآية كان لا يمر بالطريق التي فيها هذا المسجد ، وأمر بموضعه أن يتخذ كناسة تلقى فيها الجيف والأقذار .

(**لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى**) اللام لام القسم أي : لمسجد قباء الذي بني على تقوى الله وطاعته .

- **قال الشوكاني** : ومعنى تأسيسه على التقوى : تأسيسه على الخصال التي تتقى بها العقوبة .

واختلف العلماء في المسجد الذي أسس على التقوى ، فقالت طائفة : هو مسجد قباء ، كما روي عن ابن عباس والضحاك ، والحسن ، والشعبي ، وغيرهم . وذهب آخرون إلى أنه مسجد النبي ﷺ .

- **قال ابن كثير** : قد صرح بأنه مسجد قباء جماعة من السلف، رواه علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس. ورواه عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن الزهري، عن عُرْوَة بن الزبير. وقاله عطية العوفي، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، والشعبي، والحسن البصري، ونقله البغوي عن سعيد بن جُبَير، وقتادة.

وقد ورد في الحديث الصحيح: أن مسجد رسول الله ﷺ الذي هو في جوف المدينة، هو المسجد الذي أسس على التقوى ، وهذا صحيح ، ولا منافاة بين الآية وبين هذا ، لأنه إذا كان مسجد قباء قد أسس على التقوى من أول يوم، فمسجد رسول الله ﷺ بطريق الأولى والأحرى .

وقد جاء عند أحمد : عن أبيّ بن كعب: أن النبي ﷺ قال (المسجد الذي أسس على التقوى مسجدي هذا) .

(**مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ**) متعلق بأسس : أي أسس على التقوى من أول يوم من أيام تأسيسه .

(**أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ**) أي : أولى وأجدر بأن تصلي فيه من مسجد الضرار .

(**فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا**) أي: في هذا المسجد رجال اتقياء –وهم الأنصار– يحبون أن يتطهروا من الذنوب والمعاصي.

- **قال السعدي** : أي : من الذنوب، ويتطهروا من الأوساخ، والنجاسات والأحداث.
- وقد جاء عند أبي داود: عن أبي هريرة، ﷺ، عن النبي ﷺ قال (نزلت هذه الآية في أهل قباء: فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا، قال: كانوا يستنجون بالماء، فنزلت فيهم الآية) .

(**وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ**) الطهارة المعنوية، كالتنزه من الشرك والأخلاق الرذيلة، والطهارة الحسية كإزالة الأنجاس ورفع الأحداث.

(**أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ**) أي : على نية صالحة وإخلاص .

(**وَرِضْوَانٍ**) بأن كان موافقا لأمره، فجمع في عمله بين الإخلاص والمتابعة .

(**خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ**) الشفا : الحرف والشفير ، وحرف الوادي : جانبه الذي يتحفر أصله بالماء وتجرفه السيول ، فيبقى واهياً ، والهار وهو المتصدع الذي أوشك على التهدم ؛ وهار صفة لجرف ، أي جرف موصوف بأنه هائر أي : متساقط.

والمعنى : أفمن أسس بنيان دينه على قاعدة قوية محكمة ، وهي الحق الذي هو تقوى الله ورضوانه « خير أم من » أسسه على قاعدة هي أضعف القواعد وأرخاها وأقلها بقاء ، وهو الباطل والنفاق الذي مثله مثل « شفا جرف هار » في قلة الثبات والاستمساك.

(**وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**) ما داموا مصرين على ظلمهم وطغيانهم .

(**لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ**) أي: شكاً ونفاقاً بسبب إقدامهم على هذا الصنيع الشنيع، أورثهم نفاقاً في قلوبهم، كما أشرب عابدو العجل حبه.

(**إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ**) بأن يندموا غاية الندم ويتوبوا إلى ربهم، ويخافوه غاية الخوف، فبذلك يعفو الله عنهم، وإلا فبنيانهم لا يزيدهم إلا ريبا إلى ريبهم، ونفاقا إلى نفاقهم.

- **قال الشوكاني** : قوله تعالى (إِلاَّ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ) أي: لا يزال هذا إلا أن تتقطع قلوبهم قطعاً ، وتتفرّق أجزاء: إما بالموت أو بالسيف، والمقصود أن هذه الريبة دائمة لهم ما داموا أحياء، ويجوز أن يكون ذكر التقطع تصويراً لحال زوال الريبة .

وقيل : معناه إلا أن يتوبوا توبة تتقطع بها قلوبهم ندماً وأسفاً على تفريطهم .

(**وَاللَّهُ عَلِيمٌ**) بجميع الأشياء، ظاهرها، وباطنها، خفيها وجليها، وبما أسره العباد، وأعلنوه.

(**حَكِيمٌ**) لا يفعل ولا يخلق ولا يأمر ولا ينهى إلا ما اقتضته الحكمة وأمر به فللّه الحمد .

الفوائد :

قال السعدي : وفي هذه الآيات فوائد عدة:

منها : أن اتخاذ المسجد الذي يقصد به الضرار لمسجد آخر بقربه، أنه محرم، وأنه يجب هدم مسجد الضرار، الذي اطلع على مقصود أصحابه.

ومنها: أن العمل وإن كان فاضلاً تغيره النية ، فينقلب منهياً عنه، كما قلبت نية أصحاب مسجد الضرار عملهم إلى ما ترى.

ومنها: أن كل حالة يحصل بها التفريق بين المؤمنين، فإنها من المعاصي التي يتعين تركها وإزالتها.

كما أن كل حالة يحصل بها جمع المؤمنين وائتلافهم، يتعين اتباعها والأمر بها والحث عليها، لأن الله علل اتخاذهم لمسجد الضرار بهذا المقصد الموجب للنهي عنه، كما يوجب ذلك الكفر والمحاربة لله ورسوله.

ومنها: النهي عن الصلاة في أماكن المعصية، والبعد عنها، وعن قربها.

ومنها: أن المعصية تؤثر في البقاع، كما أثرت معصية المنافقين في مسجد الضرار، ونهي عن القيام فيه، وكذلك الطاعة تؤثر في الأماكن كما أثرت في مسجد " قباء" حتى قال الله فيه (لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ) .

ولهذا كان لمسجد قباء من الفضل ما ليس لغيره، حتى كان ﷺ يزور قباء كل سبت يصلي فيه، وحث على الصلاة فيه.

ومنها: أنه يستفاد من هذه التعاليل المذكورة في الآية، أربع قواعد مهمة، وهي:

كل عمل فيه مضارة لمسلم، أو فيه معصية لله، فإن المعاصي من فروع الكفر، أو فيه تفريق بين المؤمنين، أو فيه معاونة لمن عادى الله ورسوله، فإنه محرم ممنوع منه، وعكسه بعكسه.

ومنها: أن الأعمال الحسية الناشئة عن معصية الله لا تزال مبعدة لفاعلها عن الله بمنزلة الإصرار على المعصية حتى يزيلها ويتوب منها توبة تامة بحيث يتقطع قلبه من الندم والحسرات.

ومنها: أنه إذا كان مسجد قباء مسجدا أسس على التقوى، فمسجد النبي ﷺ الذي أسسه بيده المباركة وعمل فيه واختاره الله له من باب أولى وأحرى.

ومنها: أن العمل المبني على الإخلاص والمتابعة، هو العمل المؤسس على التقوى، الموصل لعامله إلى جنات النعيم.

والعمل المبني على سوء القصد وعلى البدع والضلال، هو العمل المؤسس على شفا جرف هار، فانهار به في نار جهنم، والله لا يهدي القوم الظالمين. (تفسير السعدي) .

- **وقال ابن كثير** : فيه دليل على استحباب الصلاة في المساجد القديمة المؤسسة من أول بنائها على عبادة الله وحده لا شريك له، وعلى استحباب الصلاة مع جماعة الصالحين، والعباد العاملين المحافظين على إسباغ الوضوء، والتنزه عن ملابسة القاذورات.

(إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١١)) .

[التوبة : ١١١] .

(**إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ**) أي: اشترى أموال المؤمنين وأنفسهم بالجنة، وهو تمثيل في ذروة البلاغة والبيان لأجر المجاهدين.

- **قال ابن عاشور** : والمراد بالمؤمنين في الأظهر أن يكون مؤمني هذه الأمة.

وهو المناسب لقوله بعد (فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به) .

ويكون معنى قوله (وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل) ما جاء في التوراة والإنجيل من وصف أصحاب الرسول الذي يختِم الرسالة.

وهو ما أشار إليه قوله تعالى (والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم إلى قوله ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل إلى قوله (ليغيظ بهم الكفار) .

ويجوز أن يكون جميع المؤمنين بالرسل عليهم الصلاة والسلام وهو أنسب لقوله (في التوراة والإنجيل) ، وحينئذٍ فالمراد الذين أمروا منهم بالجهاد ومن أمروا بالصبر على اتباع الدين من أتباع دين المسيحية على وجهها الحق فإنهم صبروا على القتل والتعذيب.

(**أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم**) فهي السلعة المبيعة .

(**بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ**) التي فيها ما تشتهيه الأنفس، وتلذ الأعين من أنواع اللذات والأفراح، والمسرات، والحور الحسان، والمنازل الأنيقات.

(**يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ**) أي : لإعلاء كلمة الله ، لا لغرض دنيوي أو عصبية .

(**فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ**) أي: سواء قتلوا أو قُتلوا، أو اجتمع لهم هذا وهذا، فقد وجبت لهم الجنة .

أي : أنهم يقاتلون في سبيل الله ، فمنهم من يقتل أعداء الله ، ومنهم من يقتل على أيدى هؤلاء الأعداء ، وكلا الفريقين القاتل والمقتول جزاؤه الجنة.

- **قال السعدي** : صفة العقد والمبايعة، بأن يبذلوا لله نفوسهم وأموالهم في جهاد أعدائه، لإعلاء كلمته وإظهار دينه .

ولهذا جاء في الصحيحين: "وتكفل الله لمن خرج في سبيله، لا يخرجه إلا جهاد في سبيلي، وتصديق برسلي، بأن توفاه أن يدخله الجنة، أو يرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه، نائلا ما نال من أجر أو غنيمة".

- فالجهاد من اسباب دخول الجنة .

قال تعالى (إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ) .

عن أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (انْتَدَبَ اللَّهُ لِمَنْ خَرَجَ فِي سَبِيلِهِ لاَ يُخْرِجُهُ إِلاَّ إِيمَانٌ بِي وَتَصْدِيقٌ بِرُسُلِي أَنْ أُرْجِعَهُ بِمَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ ، أَوْ أُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ ، وَلَوْلاَ أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي مَا قَعَدْتُ خَلْفَ سَرِيَّةٍ) متفق عليه .

وعَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي أَوْفَى . قال : قال رَسُولَ اللَّهِ ﷺ (يَا أَيُّهَا النَّاسُ لاَ تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ وَاسْأَلُوا اللَّهَ الْعَافِيَةَ فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا وَاعْلَمُوا أَنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ ظِلاَلِ السُّيُوف) متفق عليه .

والمعنى : ... وَالسَّبَب الْمُوَصِّل إِلَى الْجَنَّة عِنْد الضَّرْب بِالسُّيُوفِ فِي سَبِيل اللَّه ، وَمَشْي الْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيل اللَّه ، فَاحْضُرُوا فِيهِ بِصِدْقٍ وَاثْبُتُوا .

وقال ﷺ (إِنَّ أَبْوَاب الْجَنَّة تَحْت ظِلَال السُّيُوف) قَالَ الْعُلَمَاء : مَعْنَاهُ : إِنَّ الْجِهَاد وَحُضُور مَعْرَكَة الْقِتَال طَرِيق إِلَى الْجَنَّة وَسَبَب لِدُخُولِهَا .

قال القرطبي : قوله (... الْجَنَّةَ تَحْتَ ظِلاَلِ السُّيُوف) هذا الكلام من النفيس البديع الذي جمع ضروب البلاغة مع جزالة اللفظ وعذوبته وحسن استعارته ، وشمول المعاني الكثيرة مع الألفاظ المقبولة الوجيزة بحيث يعجز الفصحاء اللسن البلغاء عن إيراد مثله ، وأن يأتوا بنظيره وشكله ، فإنه استفيد منه مع وجازته الحض على الجهاد والإخبار بالثواب عليه .

وعن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال (لا يلجُ النارَ رجلٌ بكى من خشية الله، حتَّى يعودَ اللَّبَنُ في الضّرع، ولا يجتمع غبارٌ في سبيل الله ودخانُ جهنَّم) رواه الترمذي .

(**وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ**) تأكيد لهذا الوعد، وإخبار بأنه قد كتبه على نفسه الكريمة، وأنزله على رسله في كتبه الكبار، وهي التوراة المنزلة على موسى، والإنجيل المنزل على عيسى، والقرآن المنزل على محمد، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

- **قال السعدي** : التي هي أشرف الكتب التي طرقت العالم، وأعلاها، وأكملها، وجاء بها أكمل الرسل أولو العزم، وكلها اتفقت على هذا الوعد الصادق.

(**وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ**) أي: ولا واحد أعظم وفاءً بما عاهد عليه من الله ، فإنه لا يخلف الميعاد، وهذا كقوله تعالى (وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ حَدِيثًا) (وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلا) .

(**فَاسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ**) أي: فليستبشر من قام بمقتضى هذا العقد ووفى بهذا العهد .

قال السعدي : أي لتفرحوا بذلك، وليبشر بعضكم بعضا، ويحث بعضكم بعضاً.

(**وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**) الذي لا فوز أكبر منه، ولا أجل، لأنه يتضمن السعادة الأبدية، والنعيم المقيم، والرضا من الله الذي هو أكبر من نعيم الجنات، وإذا أردت أن تعرف مقدار الصفقة، فانظر إلى المشتري من هو؟ وهو الله جل جلاله، وإلى العوض، وهو أكبر الأعواض وأجلها، جنات النعيم، وإلى الثمن المبذول فيها، وهو النفس، والمال، الذي هو أحب الأشياء للإنسان.

وإلى من جرى على يديه عقد هذا التبايع، وهو أشرف الرسل، وبأي كتاب رقم، وهي كتب الله الكبار المنزلة على أفضل الخلق.

قال بعض العلماء : : فيه تحريض على القتال ، وإعلام لهم بأنهم رابحون في هذه الصفقة.

والاستبشار : الشعور بفرح البشرى ، شعورا تنبسط له أسارير الوجه.

أي : إذا كان الأمر كذلك فافرحوا ببيعكم الذي بايعتم به غاية الفرح ، وارضوا به نهاية الرضى ، فإن ذلك البيع هو الفوز العظيم الذي لا فوز أعظم منه.

قال بعض العلماء : ولا ترى ترغيباً في الجهاد أحسن ولا أبلغ من هذه الآية لأنه أبرزه في صورة عقد عقده رب العزة ، وثمنه مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، ولم يجعل المعقود عليه كونهم مقتولين فقط بل إذا كانوا قاتلين أيضاً لإعلاء كلمته ، ونصر دينه ، وجعله مسجلاً في الكتب السماوية ، وناهيك به من صك. وجعل وعده حقاً ، ولا أحد أوفى من وعده فنسيئته أقوى من نقد غيره ، وأشار إلى ما فيه من الربح والفوز العظيم.

الفوائد :

١- فضل الجهاد في سبيل الله .

٢- أن الجهاد من أسباب دخول الجنة .

٣- الترغيب في الجهاد .

٣- فضل الشهادة في سبيل الله تعالى .

ويروى عن الحسن البصري أنه قرأ هذه الآية فقال : انظروا إلى كرم الله تعالى أنفس هو خالقها ، وأموال هو رازقها ، ثم يكافئنا عليها متى بذلناها في سبيله بالجنة.